حرية التفكير فى الشرق

[كتبت لجريدة « الجامعة الاسلامية » كبرى صحف فلسطين]

ومهداة الى شباب العرب

حينما وفد على رسول « الجامعة الاسلامية » الغراء ، الزميل الفاضل الأستاذ محيي الدين رضا ، يسألني فى نبل وأدب ، أن أكتب له ـ فى الحال ـ فصلا عن تاريخ الفلسفة الاسلامية ، أو الفرق الصوفية وتطوراتها ؛ أو فى ما يزعم أو يظن أنى مختص فيه، واقف نفسى على دراسته ؛ لم يكن من أمرى — وأنا الذى يقدر هـذا الظرف الصحفى الدقيق — إلا أن أضحك ملء فى ؛ لهذا المطلب العسير ، يطلب فى مثل تلك السرعة ؛ وفى أدق ساعات عملى الصحفى ضيقاً وحرجاً أيضاً ؛ لكننى لم أعدم مخرجاً من هذا المأزق الذى لايجدى فيه الاعتذار ، فانقلبت سائلابعد أن كنت مسئولا ، وطالباً بعد إذ كنت مطلوباً ، فقلت : وهل ترى الكاتب يستطيع أن يكون حراً ، آمن النفس ، مطمئن البال إلى ما يريد أن يكتب ، صادقاً فى تأدية ما يطلب إليـه من حق ودين ، حيال مخالفيه فى الرأى أو مناهضيه فى الفكرة ؟

أحسب أن الكاتب فى الشرق عامة ، وفى الشرق العربى خاصة ، مايزال يرسف فى أغلال من عبودية الفكر ، ويخطو فى قيود من حديد الأوضاع والتقاليد ، بل مايزال أبعد كتاب العالم أجمع ، عن التمتع بهذه الميزة السامية ، وتملك هذا الحق المكتسب بالنسبة للشرق بما فى طبيعته الشرقية الروحانية من نزوع الى الحق والخير والجمال .

وهأنذا أسمعك تبدد وهمى هذا بما تظنه من حق ، فتزعم أن علة ذلك راجعة إلى استعمار الغرب للشرق فحسب ؛ وأنه يوم يبيد الاستعمار تعود إلى العقول حريتها وطمأنينتها ، وأنا إذا كنت لا أنكر ما لهذه الحجة من قيمة ، إلا أنى لا أظنها وحدها كافية لتعليل ما نرسف فيه من استعباد وتأخر وجمود ، لأن بعض دويلات أوروبا — فى القديم والحديث — لم يمنعها احتلال دول أخرى لها ، من الحرية الفكرية التى كانت سبباً — وأى سبب — فى زوال الاحتلال ؛ ولماذا نذهب بعيداً وهاهى ذى « تركيا الحديثة » يصح اتخاذها دليلا على ماقدمت وإن كنا نخالفها نحن العرب الخلص فى كثير مما انتهت إليه حالها الراهنة ؟

ولنقصر بحثنا الآن على الشرق العربى وهو ما اصطلح على أنه منبت الاسلام ومنبعه، فاذا صح هذا الذى يزعمون ـ وهو صحيح لا يحتمل جدلا ولا مناقشة ـ صح لنا أن نتساءل : أى شطرى العالم أحق بحرية الرأى والتفكير ؟

أهو الشرق أم الغرب؟

أما أنا فأزعم أن الشرق أحق بهذه الدعوى وأجدر، لأنها منه نبتت ، وفى ظل دينه السائد فيه عاشت ونمت . بينما كان الغرب يعيش فى ظلام دامس ، وفى ظل من التفكير ثقيل ، فلم يكن يسمح لانسان أيا كانت صفته ، أن يضمر ، فضلا عن أن يعلن، رأيا يخالف المجتمع ، أو يباين العصر الذى يعيش فيه . وقد كانت كلمة « الهرطقة » وهى « الكفر » تخرج من فم رجل الكنيسة ، كافية لزج الملايين بله الآلاف فى أعماق السجون ، إن لم تودى بأرواح الكثيرين . فكم من دماء أهرقت ،وأرواح أزهقت ، وأعراض انتهكت، وجرائم ارتكبت، باسم الدين تارة ، وباسم الدفاع عن الدين تارة أخرى !

فى هذه العصور المظلمة التى كان يحدث فيها ذلك الاضطهاد لأسمى مافى الوجود من كائنات، جاء الاسلام باسطاً سلطان العقل بأوسع معانيه ، داعياً إلى دين الله بالحجة والمنطق، مطالباً بالبرهان والدليل ، حاثاً على تقديس الحرية الفكرية ، والأخذ بالعقل إذا ما تعارض العقل والنقل ؛ فكان ذلك أول دين سماوى نادى بتخليص العقل البشرى من القيود والأغلال، وكان من خير هذا المبدأ الحق الجديد ، أن هزم المسلمون — وكانوا قلة فى العدد والعدة — دولتى الرومان والفرس ، وقد كانا يقتسمان العالم كله اقتساماً ، ويحكمانه بالسيف والمدفع، والباطل باسم الحق ، والظلم باسم القانون ، والوثنية باسم الدين ، ويخضعانه لطائفتين اثنتين لا ثالث لهما : رجال الدين، ورجال الحكم أو الملك . وإذن فلم يكن عجباً أن يبلغ الاسلام فى أقل من الثمانين عاماً ، مالم يبلغه قياصرة الرومان ، وملوك أنو شروان ، فى مئات من السنين .

أجل !إنه لم يكن عجباً أن نرى هذه الدولة الفتية ، دولة الاسلام الناشئة ، دولة العرب الساذجة ، تطفر طفرة واحدة من قبائل رحل لاتؤلف دويلة صغيرة ، لتتزعم العالم كله من شرقيه إلى غربيه ، ولتبسط سلطانها على المشرقين ، حتى صح لهارون الرشيد أن يقول — وقد أمطرت السماء — : امطرى حيث شئت يأتنى خراجك . فهل ترى التاريخ يعكس الآية فيصبح العرب أذلة صاغرين ، بعد أن كانوا أعزة سائدين ؟ وتصبح آية الرشيد آية الانكليز الآن ،الذين لاتغرب الشمس عن إمبراطوريتهم كما يدعون ؟

الحق أنا فى محنة طال عليها العهد ، حتى حبب إليها الركون إلى ربوعنا المباحة ، والاستقرار فى نفوسنا الملتاعة ؛ وها نحن أولاء نتجرع الكأس حتى الثمالة ، ونتجشأ الصاب والعلقم ، فإلى متى ياشيبة العرب ، وحتى مَ يامعشر الشرقيين ، وماذا أنتم فاعلون ياسلالة محمدبن عبد الله ؟

لقد سئمنا الذل والهوان ، وأتعبنا الاستعباد والاستعمار ، فهل لم يئن الأوان بعد لتصحوا من هذا الرقاد ؟ إن ذلك فى مقدوركم أنتم ، وفى أيديكم وحدكم ، فاعملوا على حرية الفكر ،

ونادوا باستقلال العقل ، وأعيدوا إليه سلطانه ، فهو والله قوام دينكم ، عليه قامت دعوته ، وبه استقامت زعامته ، ومن قال بغير ذلك ممن يلبسون مسوح الوعاظ رياء ، ويتشحون بوشاح الدين ظلماً ، فهو غير مخلص فى ما يدعى ، إنما هو للدين عدو ، وبه متاجر مساوم ، وللمستعمر مبشر وعضد.

إن التاريخ فى مختلف مراحله ، لم يحدثنا عن عصر من عصور الاسلام الزاهية ، دون أن يقرنه بالعدل والمساواة والحرية ، وينعته باحترام العقل ، والرجوع إلى المنطق ، والاعتماد على الفكر . ولنا فى ذلك أسوة برسول الله وصحابته وأئمة دينه وتابعيه ممن كانوا يبرأون إلى الله من كل عمل يخالف روح الاسلام السمح ، وشريعة التوحيد الخالصة من القيود والتعقيد .

* * *

وبعد فليكن الشرق شرقاً ، والغرب غرباً ، فسيعود الشرق قريباً إلى سابق أيامه الزاهية ، وماضى عصوره الذهبية ، ليهديه إلى سبيل العلم الصحيح ، كما هداه من قبل إلى الدين القويم ؛ ووقتئذ ينتصر عليه نصرين : نصراً فى العلم ونصراً فى الدين . ووقتئذ أيضاً نعرف مقدار الحق فى قول « جون كريستوفر مارلو » أحد نقاد الانكليز فى القرن السادس عشر ، الذى يقول :

« الشرق والغرب يساويان فى الميزان الجغرافى – تمام المساواة – الشمال والجنوب . تخالف تقاليد الشرق تقاليد الغرب ، كما تخالف أجواء الشرق أجواء الغرب ؛ وفى اختلاف الأجواء اختلاف للبيئة ، وفى اختلاف البيئة اختلاف الذوق ؛ وفى اختلاف الذوق اختلاف التقدير ؛ ومن هنا يختلف التقدير والنظر إلى لباب الأشياء ، لأن الهادى إلى ذلك إنما هو الذوق والاحساس بالجمال قبل كل شىء . وفى اعتقادى أن ذلك الذى ينادى بفكرة العالمية مشعوذ أكثر منه رسول تفكير »

وبعد ، فتلك خواطر سريعة ، نرجو أن تكون باعثاً – لمن لديهم سعة من الوقت والتفكير – لبحث الموضوع من نواحيه العلمية والدينية والفلسفية المختلفة ؛ ولعل ما لنا من حق الزمالة على زميلنا العالم الجليل السيد الفاروقى ، يشفع لنا فى هذه الكلمة السريعة ، التى أردنا بها الإجمال لا التفصيل والسلام ؟

الاسلامبولى

لا تنس

تسديد قيمـــــة الاشتراك

لنرسل اليك ملحق المعرفة

الذى أشرنا اليه فى أول هذا العدد